الأمير عبد القادر الجزائري مؤلفا

- دراسة تحليلية لفكر الأمير من خلال أهم مؤلفاته-

أ.ة. مهيبل إسمى
جامعة الجزائر

I- مؤلفات الأمير عبد القار الجزائري:

خلف الأمير عبد القادر عدّة آثار نذكر منها:

أ- **وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب:** وهي عبارة عن رسالة تضم مجموعة القوانين والضوابط التي وضعها الأمير لتنظيم جيشه، وقد قام بجمعها أحد كتّاب جيش الأمير قدور بن رويلة ثم أعطاها هذا العنوان، وتدل هذه الرسالة على ما كان للأمير من خبرة في أمور الحرب وتنظيم الجيوش[1].

ب- **" جواب سؤال عن الراكنين إلى الكفار ومسائل الجهاد"** : وهو عبارة عن إجابات الأمير عن أسئلة بعض الأعيان ممن سأله عن الراكنين إلى الكفار، ويوجد على شكل مخطوط، جاء في أوله: "...هذا جواب فريد العصر وخاتمة علماء القرى و المصر، حامل لواء الفروع والأصول، الجامع بين علمي المعقول و المنقول، مولانا أمير كافة المؤمنين، ومقدام أبطال كتائب المجاهدين لمن سأله عن الراكنين إلى الكفار فأجابه مسرعا خوفا من العزيز الغفار، حسام الدين لقطع شبه المرتدين..."[2].

جـ- **تعليقات على حاشية جده السيد عبد القادر ابن خدة في علم الكلام**[3].

د- **الصافنات الجياد**، وهو كتاب في الخيول العربية، تناول فيه محاسن الخيول وصفاتها[4].

ذ- **كتاب المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل و الإلحاد**[5].

ر- **كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**[6].

هـ- **كتاب مذكرات الأمير عبد القادر**[7]، وهو عبارة عن سيرة ذاتية للأمير، كتبها في السجن سنة 1849، ويطلق عليه اسم المذكرات تجاوزا، لأن جزءا صغيرا فقط من الكتاب هو الذي يصح أن يطلق عليه اسم المذكرات، وهو الجزء الذي اختص بحياة الأمير الذاتية والعائلية والجهادية، ويضم الفصل الأول من الكتاب الذي يحتوي على اثني عشر صفحة من المخطوط، تناولت نسب الأمير ودراسته وشيوخه، ثم الفصل الرابع، ويحتوي على ثمانين صفحة غطت حياة الأمير منذ حجته الأولى حوالي 1828 إلى هزيمته سنة 1847واعتقاله، بينما ضمت الفصول الأخرى معلومات عامة عن تاريخ الإسلام والأنبياء والعرب والمسلمين والبيزنطيين.

وهناك اختلاف بين الباحثين حول مؤلف هذه المذكرات، هل هو الأمير نفسه أو صهره مصطفى ابن التهامي، أوهما معا، وإن كان من المرجح أنهما اشتركا في تأليفه[8].

و- **أجوبة الأمير على أسئلة الجنرال دوماس حول المرأة العربية**[9]، وقد افتتح الأمير بها عصر المناظرات بين الشرق والغرب حول القضايا الدينية، وتبين فيها وجهة النظر الإسلامية في قضايا المرأة موضحا حقيقة المرأة العربية، في محاولة لتصحيح الصورة المشوهة

التي رسمها الأوروبيون لها، مبينا مكانة المرأة في الإسلام، ووضعها في ظل العادات العربية، حيث تناول موضوعات مختلفة تخص المرأة العربية كالحجاب والزواج والطلاق وتعدد الزوجات و الميراث واستشارة النساء، وكذلك موقفه من تعليم النساء[10].

ي- **ديوان شعر الأمير عبد القادر الجزائري**[11]، ويضم ديوانه أغراض الشعر المختلفة كالفخر والحنين والغزل والوصف والفروسية والمدح، وشعر التصوف و التوسل[12].

II- دراسة تحليلية لفكر الأمير من خلال أهم مؤلفاته:

يعتبر كتاب " المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل و الإلحاد" الذي ألفه الأمير عبد القادر عندما كان معتقلا بفرنسا سنة 1852، وكتاب" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" الذي ألفه عندما كان مقيما في بروسة سنة 1854، ثم كتاب " المواقف " الذي ألفه عندما كان مقيما بدمشق التي عاش فيها من سنة 1855م حتى وفاته سنة 1883م، من أهم مؤلفات الأمير عبد القادر، وتعكس هذه المؤلفات التطور الذي حصل في فكره خلال كل مرحلة من مراحل حياته، وهو ما سنحاول إظهاره من خلال دراسة تحليلية لهذا المؤلفات الثلاث.

1- كتاب" المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد":

أ- أسباب تأليفه: ألف الأمير عبد القادر كتابه" المقراض الحاد" سنة 1852، عندما كان أسيرا في قصر أمبواز بفرنسا، وهو عبارة عن رسالة ردّ فيها عل الطاعنين في دين الإسلام، ممن جهلوا فضائله أو عموا عنها، فجاء كتابه هذا- كما بين عنوانه- لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد.

ويبدو انه كان طلب من الأمير وهو في أمبواز أن يؤلف كتابا يُعرِّف فيه بالإسلام وتعاليمه، فقد أُعتُبرَ الأمير – في نظر رجال الفكر والأدب والسياسة الفرنسيين – نموذجا للعقل العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، وهم الذين اغتنموا فترة اعتقاله بفرنسا ليتعرفوا على هذا العقل عن كثب، حيث يقول الأمير في مقدمة كتابه:" عندما طلب مني شرح عن معتقداتي الإسلامية، أجبتهم بأنني لا أصلح تلميذا لعلماء المسلمين، فضلا أن أكون من جملتهم، ولكنني سأبذل الجهد" (13).

وكان ثمرة هذا الجهد تأليف كتاب" المقراض الحاد" الذي ترجم إلى الفرنسية في نفس سنة تأليفه (1852) (14).

ب- مواضيع الكتاب: التزم الأمير في تأليف كتابه " المقراض الحاد" – كما في مؤلفاته الأخرى كذكرى العاقل وتنبيه الغافل الذي سيأتي ذكره- ، بالمنهج العلمي في التأليف، من حيث إتباعه

أسلوب التقييم والترتيب و التصنيف و التبويب، وهو ما يدل على عقلية الأمير المنظمة وروحه العلمية[15]، حيث قسم كتابه" المقراض الحاد" إلى مقدمة وثلاثة أبواب، وقسم الأبواب إلى فصول، وذلك ليكون القارئ على بينة من أمر الكتاب قبل الشروع في قراءته، أما مواضيع الكتاب فهي: تعريف العقل وما يتعلق به، النظر في خلق السماوات والأرض والإنسان، إثبات النبوة وما يتعلق بها من تاريخ الرسل وحاجة الناس إليهم، الأخلاق الإسلامية منذ عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم [16].

ج- **فكر الأمير من خلال كتاب " المقراض الحاد":**

واهم ما يمكن استخلاصه من أفكار الأمير في هذا الكتاب مايلي:

ج1- **دعوته إلى إعمال العقل ونبذ الجهل و الغرور:** يعتبر الأمير أن العقل هو منبع العلم والمعرفة، وقد شرّف الله به الإنسان، وجعله وسيلة سعادته في الدنيا و الآخرة، لأنه وسيلة الإنسان للوصول إلى الحقيقة، وتسانده في ذلك الحواس [17].

لذلك يدعو الأمير في كتابه إلى إعمال العقل في تحصيل العلوم والقيام بالأعمال النافعة، لأن من يفعل ذلك من الناس يكون- في نظر الأمير – شبيه بالملائكة، أما من يغفل عن ذلك، ويصرف قوته في إشباع شهواته" يأكل كما تأكل الأنعام،

ويعتدي على من هو أضعف منه طمعا بما في أيدي الآخرين" فهو- في نظر الأمير- قد انحط إلى مرتبة الحيوان، حتى أصبح كخنزير أو كلب عقور أو ثعلب ماكر أو كشيطان رجيم"[18].

كما يحذر الأمير من الجهل، لأنه يقف من المشكلات التي تعترض الإنسان موقف العاجز، وكذلك من الغرور لأنه- في نظر الأمير - نوع من أنواع الجهل[19].

ويدعو الأمير للاستماع إلى الحق دون النظر إلى مظهر صاحبه أو جنسه أو لونه، وهي دعوة تحريرية تدعو لإعمال العقل للوصول إلى الحقيقة، لان الحكمة ضالة العاقل يأخذها أينما وجدت[20].

ج2- إثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة الله تعالى:

حاول الأمير أن يجمع كل البراهين الدالة على وجود الله تعالى، فشرح الجسد الإنساني، وتناول موضوع الروح، ونظر في آيات الله في الكون من شمس وقمر وكواكب وأنهار وبحار وجبال وحيوانات ونبات، وانتهج في ذلك أسلوب الاستدلال والاستشهاد لفهم الظاهرة الكونية فهما صحيحا يوحي بعظمة الخالق وإبداع خلقه، ممّا يؤدي إلى التصديق واليقين بوجود الله تعالى[21].

وينكر الأمير على بعض المسيحيين قولهم إن المسلمين لا يعترفون بالأسباب، فالمسلمون يعترفون بها، وإنما لا يعترفون بقوتها

المجردة، بل بقوة مسبب هذه الأسباب وهو الله تعالى، لذلك كان كامل العقل عند الأمير، هو الذي "يغوص بعقله من المسببات إلى الأسباب إلى مسبب الأسباب" (22).

ولا يتم الوصول إلى الحقيقة العلمية – في نظر الأمير- إلا بتتبع جزئيات الظاهرة الكونية، والاستدلال على الحوادث بالأسباب، ولا يعترف بالتنجيم كوسيلة للوصول إلى الحقيقة، فهو يعتبر أن "من ادعى الإطلاع على الغيب بالنجم والقطع به فهو باطل، وأما إصابة المنجم فهو اتفاقي" (23).

وينهي الأمير حديثه بإقرار مبدأ التوحيد لله تعالى" فاعل الكل، وصانع الجميع، واجب الوجود لذاته...حي بلا مزاج، فاعل في الأشياء بلا علاج، علة كل شيء صنعه ولا علة له، هو واحد في الذات والصفات والأفعال، غني في أفعاله عن الوسائط والأسباب" (24).

ج3- **بيان فضل الأنبياء وموقف الإسلام من الأديان الأخرى:** لم يضع الأمير الإسلام موضع الخصومة مع الأديان الأخرى، فهو ليس إلا امتداد للفكرة الدينية التي تمثلت قبله في اليهودية والمسيحية(25)، ولتوضيح ذلك ذكر الأمير ما ورد في التوراة والإنجيل من تبشير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء من ذكر لمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام في القرآن(26).

وبين الأمير فضل الرسل، وأنهر رحمة من الخالق لمخلوقاته، لأن رسالتهم تأكيد لوجوده تعالى وإقرار بوحدانيته، وهداية الناس إلى سبل النجاة في الآخرة، فالعقل لا يهتدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة إلا بواسطة الرسل[27].

ج4- **بيان فضائل الإسلام الخلقية**:خصص الأمير جزءا من كتابه للحديث عن مآثر الإسلام الذي لم يترك خلقا حسنا إلا وامر به، ولم يترك خلقا ذميما إلا ونهى عنه [28].

وقد وضع الأمير قائمة طويلة لأخلاق الإسلام، وركز على شيم الوفاء بالعهد، وصدق الوعد، وعلى أخلاقيات الحبروما توجبه من حسن معاملة الأسرى، والتزام بالعهود والمواثيق[29]، وهو وان كان يدفع بذلك عن الإسلام الشبهات التي رماه بها الطاعنون فيه، فإنه يشير إلى حسن معاملة للأسرى أثناء قيادته حرب الجهاد في الجزائر، والتزامه بالعهود والمواثيق التي عقدها مع أعدائه الفرنسيين، في حين خانوا العهد الذي وقعوه معه ليجعلوا منه أسيرا لديهم.

وعلى الرغم مما تعرض له الأمير من غدر ونكث بالعهد من طرف الفرنسيين، فإنه لا يتعصب، ولا ينكر نصيب غير العرب من الفضيلة، لا سيما ما يتعلق منها بالوفاء و الصدق، وإن كانت هذه الأمم لم تُعنى بهذه القيم عناية العرب بها في جاهليتهم وإسلامهم على السواء، إذ يقول:" وباقي الأمم، وإن كانت تفي بالعهد

وتستقبح الغدر والكذب، فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم في ذلك، فإنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية، وأخلاق مرضية، وأفعال كريمة، وهمم عظيمة، وعقول راجحة، وآراء ناجحة، وشرف عظيم، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل و المروءة قبل أن تكون بينهم النبوءة" [30].

2- كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" [31]:

أ- **أسباب تأليفه:** يعتبر كتاب " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " من أهم مؤلفات الأمير عبد القادر، وقد ألف الأمير هذا الكتاب سنة 1854م، أثناء إقامته في بروسة [32]، فكان من أبرز أعماله في مجال التدوين خلال الثلاث سنوات التي قضاها في بروسة قبل أن ينتقل إلى دمشق [33].

وطبع الكتاب مرتين في حياة الأمير أولاهما سنة 1858م، والثانية سنة 1877م، حيث قام المستشرق غوستاف دوغا بترجمته إلى اللغة الفرنسية، وطبعه في باريس سنة 1858م [34].

وكانت الجمعية الآسيوية في باريس قد أرسلت إلى الأمير أثناء إقامته في بروسة، وأعلمته أنها قررت قبوله كعضو من أعضائها، وعالم من علمائها، وأنها أضافت اسمه إلى دائرة المعارف، فأراد الأمير أن تكون عضويته فيها قائمة على مساهمة فعلية في المجال الفكري، لذلك ألف كتابه " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " وأرسله

إلى الجمعية بعد أن ترجمه له سكرتير القنصلية الفرنسية في دمشق ترجمة أمينة[35].

وقد ذكر الأمير أسباب تأليف الكتاب في مقدمته فقال: "...فإنه بلغني أن علماء باريز (كذا)، وفقهم العليم الحكيم العزيز، كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء...ثم أشار عليّ بعض المحبين منهم، بإرسال بعض الرسائل إليهم، فكتبت هذه العجالة وسميت هذه الرسالة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" [36].

ويعتبر كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل إسهام من الأمير في الأبحاث الفلسفية في وقت كانت فيه أبحاث معاصريه من العلماء المسلمين لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية و الأدبية وغيرها، ولعل مرد ذلك إلى ميل الأمير إلى مباحث الفلسفة التي درسها من خلال قراءته لكتب متصوفة العصر الموحدي كابن خلدون، و الفلسفة القديمة كفلسفة أرسطو وأفلاطون وسقراط، مما يظهر أثره في مباحث الكتاب، وقد زاده احتكاكه بالعلماء الفرنسيين أثناء اعتقاله بفرنسا، وإطلاعه على تقدمهم الفكري و الفلسفي ميلا إلى هذا الاتجاه[37].

ويدل عنوان الكتاب على هدوء نفس الأمير أثناء إقامته في بروسة، عند تأليفه، وذلك على العكس من مشاعر الغضب التي كانت قد اجتاحت نفسه أثناء فترة اعتقاله بفرنسا، بسبب الأسر

الذي تعرض له فيها، مما انعكس أيضا على ما آلفه عندئذ، حيث اختار لمؤلفه عنوان" المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد"، وهو عنوان ينم عن حدية وسخط كبيرين[38].

ب- **مواضيع الكتاب**: تناول الأمير في كتابه " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" جملة من الموضوعات قام بعرضها في مقدمة كتابه الذي قسمه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وتطرق فيه للمواضيع التالية الحث على النظر وذم التقليد، فضل العلم و العلماء، تعريف العقل، القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان يكون كاملا (العقل، الشجاعة، العفة، العدل)، فضل إدراك العقل على الحواس، فضل مدركات العقل على مدركات الحواس، انقسام العلم إلى محمود ومذموم، إثبات النبوة، معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة، فضل الكتابة وما يتعلق بكتابات الأمم، بيان حروف الكتابة العربية، حاجة الناس إلى التصنيف وما يتعلق به[39]، ويلاحظ أن الكثير من مواضيع الكتاب هي تكرار لما ورد في كتابه" المقراض الحاد".

ج- فكر الأمير من خلال كتاب" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

إن الدارس لموضوعات الكتاب يتلمس أفكار الأمير التي تدور أساسا حول موضوعين أساسيين هما: العلم و الدين، وأهم ما يمكن استخلاصه من آراء الأمير حولهما ما يلي:

ج1- دعوته للاجتهاد ونبذ التقليد: دعا الأمير في مقدمة كتابه إلى إعمال العقل وتحريره، ونبذ التقليد ومحاربته، لأن العاقل- حسبه- هو الذي "ينظر في الحق ولا ينظر إلى قائله، فإن كان القول حقا قبله، سواء كان قائله معروفا بالحق أو الباطل"[40].

فالحقيقة في نظر الأمير معيار للناس ، أمّا الناس فليسوا معيارا للحقيقة ، وإن كان الناس يأخذون بعضهم كمعيار للحقيقة فيقبلون كلام من حسن اعتقادهم فيه وإن كان باطلا، ويردون كلام من ساء اعتقادهم فيه وإن كان حقا ، فإن العاقل هو الذي يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال[41]. وفي ذلك دعوة إلى إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة، ونبذ تقليد الغير بدون دليل، ولذلك يتمايز الناس في رأي الأمير وينقسمون إلى مراتب: فمنهم" قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بان يقلدون، وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح ان يقود العميان"[42].

لقد دعا الأمير بشدة إلى ترك التقليد، لأن التقليد يحول دون اهتداء الناس إلى الحقيقة، وذلك لأنهم يكونون "محجوبون باعتقادات تقليدية رسخت في قلوبهم، وجمدت عليها قلوبهم"(43). ولا يحصر الأمير التقليد المضر في تقليد البشر، فهو يرى أن تقليد الكتب أكثر ضررا من تقليد الناس، وذلك لاختلاف العلماء في الأغلب، فعلى العاقل أن لا يتبع رأي عالم بلا دليل، بل يستخدم ملكاته العقلية للوصول إلى الحقيقة، فإن تعذر عليه ذلك فعليه أن يختار الراي الذي يتفق أكثر مع كتاب الله (44) فالعقل – في نظر الأمير – مهما بلغ من الشرف فإن هناك علوما لا يصل إليها إلا بالاستعانة بعلوم الأنبياء إلى جانب العلوم العقلية، لأن " العلوم العقلية كالأغذية، و العلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يتضرر بالغذاء إذا فاته الدواء"(45).

لقد عبر الأمير بآرائه حول الاجتهاد وتحرر العقل من قيود التقليد عن مفهوم إسلامي سابق لعصره، وهو يتفق في ذلك مع آراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وإن كان سابقا لهما، فقد كتب الأمير آراءه تلك سنة 1854، بينما لم تبرز آراء الأفغاني إلا سنة 1871 وما بعدها(46).

2- **بيان فضل العلم و العلماء:** يؤكد الأمير على فضل العلم والعلماء، إذ نجده يدعو إلى العلم ويقدسه، بل يرى أن العلم هو

الغاية من خلق الإنسان وبه يكون شرفه وكماله " وإنما شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم، وبها كماله " [47] والعلوم في نظر الأمير ثمار العقول، ولا سيء أقبح من الإنسان الذي وهبه الله القدرة على طلب العلم، فأهمل تحصيله، وحرم نفسه من هذه الفضيلة[48].

ويعتبر الأمير العلم مقياسا لتفاضل الناس لان به كمالهم، وحيث أن " كمال كل شيء إنما يكون بظهور خاصيته التي امتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية، فبقدر ظهور تلك الخاصية يطلق عليه اسم الكامل " [49]، ولأن خاصية الإنسان هي العلم فإنه " بكمال هذه الخاصية ونقصانها يفضل الناس بعضهم بعضا "[50]، فيكون العلماء العاقلون بذلك أكثر الناس فضلا لأنهم أكثرهم كمالا.

ج3- **دعوته إلى معرفة الله عن طريق العقل:** بين الأمير أن أكبر غاية من خلق الإنسان هي معرفة الله وعبادته، ولا يعرف الإنسان خالقه إلا بالعقل، فالعقل يسمح للإنسان باكتشاف العالم غير المرئي إلى جانب العالم المرئي الدنيوي، واستنادا إلى ذلك أقام الأمير رأيه القائل بتكامل الإيمان بالعقل، فالمعرفة الإلهامية تنقل حقائق لا تصل إليها المعرفة العقلية [51] لأن " وراء العقل طورا آخر وأمور أخرى، العقل معزول عنها ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره " [52]، وهي العلوم التي يأخذها الإنسان عن الأنبياء، بتعلم ما

جاء في كتب الله المنزلة عليهم، وهي التوراة والإنجيل و الزبور و القرآن الكريم، وفهم معانيها ، وعليه يقسِّم الأمير العلوم إلى قسمين: عقلية وشرعية، ولكنه يؤكد أن العلوم الشرعية لا تناقض العلوم العقلية، إذ" كل شيء جاء عن الأنبياء مما شرعوه للناس لا يخالف العقول السليمة، نعم، يكون في شرائع الأنبياء ما تستبعده العقول لقصورها عنه، فإذا عرفت طريقه، عرفت أنه الحق الذي لا ينبغي العدول عنه" (53).

وكما أن المعرفة الإلهامية المستقاة من كتب الله المنزلة على رسله تنقل حقائق لا تصل إليها المعرفة العقلية، فإن الإنسان لا يدرك المعرفة الإلهامية إلا بإعمال العقل، ولذلك فإن شكلي المعرفة متكاملان(54)، " فلا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية، ولا غنى بها عن العقل" (55).

وبإدراك الأمير لتكامل شكلي المعرفة، نجده يدعو الناس إلى الجمع بينهما، لأن من " يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل، و المكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن تكونوا أحد الفريقين، وكونوا جامعين بينهما" (56).

والأمير يحذر مما وقع فيه علماء فرنسا من نزوع نحو العقل العملي، وإهمال العقل النظري، مما جعلهم يحرزون تطورا ماديا كبيرا، ولكنهم لم يتوصلوا إلى الغاية التي خلق الإنسان من

أجلها، حيث لم يستعملوا هذا" العقل النظري في معرفة الله وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السماوات والأرض، وما يلزم الإله من الكمال، وما يتقدس عنه من النقص" [57]. ولو فعلوا ذلك" لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك والمزية التي لا تشرك، ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى إنهم لا يسمع منهم لها ذاكر، ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر" [58].

لقد نظر الأمير إلى مشكلة الانسجام بين الروح والمادة نظرة إسلامية معتدلة، فحذر من العلم الفاقد للضمير، ودعا إلى التوفيق بين الروح والمادة، لأن نجاح الإنسان في حياته، ونجاته في آخرته إنما يتم بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد[59].

ج4 دعوته لإصلاح السلوك وتقويم الأخلاق:

في الكتاب دعوة أخرى من الأمير للتحلي بمكارم الأخلاق، فقد ذكر القوى الأربع التي إن اعتدلت في الإنسان يكون كاملا، وهي - في نظر الأمير- قوة العقل، وقوة الشجاعة، وقوة العفة، وقوة العدل.

ومصدر كل فضيلة يرجع إلى أحد هذه القوى، فعنها تصدر جميع الأخلاق الكريمة إن اعتدلت في الإنسان، أمّا إن ابتعدت عن الاعتدال، ومالت إلى الإفراط أو التفريط، نجم عنها كل ما هو مذموم من الصفات[60]، ولذلك فإن من جمع بين هذه القوى الأربعة

استحق- في نظر الأمير- " أن يكون بين الخلق مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به" [61].

ويذكر حاجيات أن الأمير أضاف قائلا أنه" من تعرى من هذه الأربعة كلها، واتصف بأضدادها، استحق أن يخرج من بين العباد، ويطرد من البلاد"، وهو رأي شديد وعنيف حُذف من الكتاب المنشور، رغم وروده في الكاتب المخطوط، وعلى الرغم من شدته فإنه ينسجم مع ما عُرف به الأمير من تشدد في تطبيق أحكام الشريعة، فما كان موقف الأمير بما عرف به من حزم وصرامة في الحق إلا أن يكون كذلك إزاء من اتصف بالجهل و الجبن والفسق و الظلم [62].

ج- تحديد العلاقة بين الإسلام و الأديان الأخرى:

كتب الأمير حول علاقة الإسلام بالمسيحية و اليهودية، فقال إنّ محمدا صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل ما جاء به عيسى وموسى، فالدين كله لله، ولا خلاف بين الأنبياء، فجميعهم من آدم إلى محمد دعوا الخلق إلى توحيد الله وإلى حفظ الكليات الخمس وهي: النفس والعقل والنسل والمال [63].

ويعتبر الأمير أن النبوة حكمة، وإن كانت نبوة موسى عملية، " النفس بالنفس، و العين بالعين، والأنف بالأنف، و الجروح قصاص"، وحكمة عيسى علمية تجردية" إذا لطمك أخوك على

خدك الأيمن، فضع له خدك الأيسر"، "فإنّ حكمة محمد عليه السلام جامعة بينهما "لكم في الحياة قصاص"، "وخذ العفو وأمر بالعرف وأرضعن الجاهلين"، "وأن تعفو أقرب للتقوى"(64).

لذلك يدعو الأمير إلى الأخوة الإنسانية بين المسلمين و المسيحيين و الموسويين، لأن " الدين واحد باتفاق الأنبياء، وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية، فهم كرجال أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة"(65).

وتعكس أفكار الأمير حول العلاقات الإسلامية - المسيحية، السمعة الإنسانية التي اكتسبها سواء في الجزائر من معاملته اللائقة للأسرى الفرنسيين عنده (66)، عندما كان أميرا للجهاد أو التي سيحرزها - بعد وقت قصير من كتابته لهذا الكتاب - من موقفه الإنساني من المسيحيين في دمشق عند اشتعال فتنة 1860 بينهم وبين المسلمين، فقد كتب يقول:" لو أصغى إليّ المسلمون و النصارى لرفعت الخلاف بينهم، لصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا، ولكن لا يصغون إليّ " (67).

ولعل وسيلته إلى ذلك إظهار الحق الذي يختلفون فيه بالحجة و الدليل إذ يقول:" لو جاءني من يريد معرفة الحق، وكان يفهم لساني فهما كاملا، لأوصلته إلى طريق الحق من غير تعب، لا بأن يقلدون (كذا)، بل بأن يظهر الحق له، حتى يعترف به اضطرارا" (68).

ب- **موقفه من مسألة القدرية و الحرية:** عند تناوله لمسألة القدرية يرفض الأمير بشدة كل قدرية تقيد الإنسان الذي أراده الله حرا في تصرفاته، ويستدلّ الأمير على ذلك بتحليله للعبة الشطرنج[69].

فالمتباري في لعبة الشطرنج " إن غَلَبَ فباجتهاده، وإن غُلِبَ فبتفريطه" [70]، و اللاعبين لا يمكنهما الخروج عن قوانين هذه اللعبة التي قدرها الواضع لها، وإن كانت لهما حرية إعمال الفكر والجد والاجتهاد لبلوغ النجاح. فهما " مجبوران في صورة مختارين، ومختاران في صورة مجبورين " [71] وكذلك " أراد الله من العباد ما هم فاعلون له، ولم يجبرهم، كما أراد الواضع من اللاعبين ما هم لاعبون، ولم يجبرهم"[72].

وبذلك ترتبط سعادة الإنسان ونجاحه بعلمه وعمله، فإن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها.

ج- **بيانه أهمية الكتابة والتدوين:** تناول الأمير بالدراسة ثقافات الأمم المختلفة كالهنود والفرس واليونان والروم والإفرنج والعرب والعبرانيون والمصريون وغيرهم، وعرض لكتابات الأمم حيث عدّها اثني عشرة كتابة، ووصف خصائص كل منها وصفا دقيقا[73].

وأثبت الأمير أن رقي الإنسان وتقدمه ارتبط بالكتابة والتدوين، فلولا الكتابة لما وصل إلينا ما تركه الأقدمون من العلوم، ولكان تقدم الإنسان بطيئا جدا، والأمم التي اعتنت

بالتدوين سبقت غيرها في مجال الحضارة والتقدم الإنساني، أما الأقوام البدائيون ممن عاشوا في أمية وتخلف، فليس لهم ذكر إلا في مؤخرة الشعوب، وفي ذلك دعوة من الأمير إلى طلب العلم وتدوينه للحاق بركب الأمم المتقدمة[74].

وعلى الرغم من تفتح الأمير على العلوم، والأفكار المتحررة، ودعوته إلى تحرير العقل والإبداع والتجديد، وحثه على العلم، فإننا نجد له موقفا غريبا من مسألة تعليم النساء الكتابة، حيث يقول: "نهى شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة، لأن المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى، فتكتب له، فتكون الكتابة سببا للفتنة"[75].

ويبدو الأمير في رأيه هذا متأثر بالتقاليد التي حرمت المرأة من التعلم، فأساءت إليها وإلى مجتمعها، وعلى الرغم من ذلك فإن آراء الأمير هذه تصوير لما توصل إليه العقل الشرقي في ميادين الفلسفة في منتصف القرن التاسع عشر من تشبث بالثقافة العربية الإسلامية، ومحاولة للخروج من التقوقع والتزمت، و التفتح على ما طرأ من تقدم الحضارة الإنسانية، للحاق بركب الدول المتقدمة[76].

3- كتاب " المواقف" :

يعتبر كتاب " المواقف الروحية و الإلقاءات السبوحية " (77)، أهم أعمال الأمير عبد القادر في دمشق، وهو كتاب في التصوف، جمع فيه الأمير نتاج خبرته الطويلة و دراساته ومشاهداته وتأملاته.

أ- **طريقة كتابته**: أورد الشيخ محمد ابن محمد الخاني في كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري ترجمة وافية للأمير (78)، وذلك كذيل للموقف ثلاثة وستين وثلاثمائة، بين في نهايتها الطريقة التي كتبت بها المواقف فقال:"... وكنت أراجعه (الأمير) كثيرا في بعض مسائل وأسئلة حول بعض مشكلات الفتوحات و الفصوص و غيرهما، فلكثرة حبه للخير وبذله مع كثرة انشغاله كان يقيد ما ظهر له بالكشف ويوضحه ويعطيني إياه، وكنت حريصا عليه فأقيده في المواقف بإذنه، كما يشير إلى ذلك قوله في بعض المواقف قد سألني بعض الإخوان و التصريح باسمي في شرح فص شعيب وفص إسماعيل وفص آدم عليهم الصلاة و السلام وعليه وجزاه الله عني خير ما جاز به أحدا عن احد، فإن تفضلاته على هذا العبد لا تنضبط، وكنت طلبت منه شرح خطبة الفتوحات وشرح فص آدم فابتدأ بهما ولم يتماه (كذا)، فوجدت ما كتبه في كناشه مع بعض فوائد أخرى ومبشرات له من جملتها بعض ما قيدته هنا فأحببت تقييدها كالذيل لمواقفه خوف ضياعها

مستمدا ومستأذنا منه روحانيته الشريفة قدس الله وطهر روحه اللطيفة "[79].

لم يكن الشيخ محمد الخاني الوحيد الذي اشتغل في جمع المواقف وكتابتها، بل اشترك معه اثنين من علماء دمشق هما الشيخ محمد الطنطاوي[80]، و الشيخ عبد الرزاق البيطار[81]، فقد بين جواد المرابط أن بداية تأليف المواقف تعود إلى الأيام الأولى من حلول الأمير بدمشق، وبالتحديد إلى الأسبوع الثاني من وصوله إلى دمشق، حيث توافد عليه الزائرون، ووقع أن أحد زائريه كان بصحبة ابنه، فقام الابن واستأذن من والده بالإنصراف، وأجاب الأب" الله معك "، فعلق الأمير على هذا الدعاء من الأب لابنه بحديث جميل استلهم فيه معنى الآية الكريمة " وهو معكم أينما كنتم "[82].

فلما أتم الأمير كلامه، رجاه الشيخ محمد الخاني، و الشيخ عبد الرزاق البيطار و الشيخ محمد الطنطاوي أن يدونوا ما يتكلم به في مجالسه، فكان ذلك نواة كتاب " المواقف "[83].

ونستخلص مما سبق أن كتاب " المواقف " يتألف من نصوص كتبها الأمير بنفسه، وذلك بدليل قول محمد الخاني"... فوجدت ما كتبه (يقصد الأمير) في كناشه مع بعض فوائد أخرى ومبشرات له من جملتها ما قيدته هنا "[84]. كما تألف الكتاب من نصوص أملاها الأمير على تلامذته الثلاثة

المذكورين، وشكل جزءا كبيرا منه أجوبة على أسئلة طرحت عليه[85].

ب- نسخه: ظهرت مخطوطات عديدة لكتاب المواقف في حياة الأمير، ثم تكاثرت نسخها بعد وفاته[86]، وقد تم طبع الكتاب لأول مرة سنة 1911، وأعيد طبعه ثانية سنة 1966 عن دار اليقظة العربية، وهي طبعة بوبت ورتبت بالإعتماد على نسخة جمال الدين القاسمي التي كانت بدار الكتب الظاهرية بدمشق، ونسخة عبد الرزاق البيطار وهو أحد تلامذة الأمير الذين دونوا معه المواقف، وكانت على نسخته تعاليق بخط الأمير نفسه، وقد قام بمراجعة هذه الطبعة وتصحيحها لجنة من علماء دمشق، مما يعطيها قيمة علمية من حيث دقة التحقيق، وإن كتب عليها عبارة "منقحة"، وهي عبارة غير صحيحة لأن التنقيح لا يصح إلا على يد المؤلف نفسه[87].

خرجت بعض نسخ المواقف خلال حياة الأمير قبل انتهائه من إكمال كل المواقف، مما يفسر النقص الواقع في طبعاتها[88]، حيث تألفت طبعة الجزائر من ثلاثمائة وثمان وستين موقفا، ف حين تألفت طبعة دمشق من ثلاثمائة واثنين وسبعين موقفا[89].

ج- العنوان الكامل للكتاب: يوجد أكثر من عنوان لكتاب المواقف، وقد حملت طبعة دمشق التي صدرت سنة 1967 اسم "كتاب المواقف في التصوف و الوغظ و الإرشاد"(90).

يبدو أن الأمير عبد القادر اختار لكتابه أولا عنوان المواقف، ولكنه لما وصل إلى الموقف ستون وثلاثمائة، ورد عليه إلهام بأن يزيد في العنوان، فقال:" قال الله تعالى:" آلر، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين" قيل لي زد في تسمية كتابك بالمواقف في بعض إشارات القرآن والأسرار و المعارف"(91).

لذلك فإن العنوان الكامل للكتاب هو: "المواقف الروحية في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف و الإلقاءات السبوحية"، وهو العنوان الذي حملته طبعة الجزائر التي صدرت سنة 1996، وهي عبارة عن نسخة طبق الأصل عن النسخة الأصلية المحفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية(92).

ولم يقدم الأمير عبد القادر شرحا لكلمة "مواقف"، إلا انه من المرجح انه اختار عنوان:" المواقف" لكتابه تأسيا بغيره من أقطاب الصوفية الذين ألفوا كتبا بهذا العنوان، وأهمهم: محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري صاحب كتاب المواقف المتوفى في القرن العاشر الميلادي، خاصة إذا علمنا أن ابن عربي الشيخ الأكبر للأمير قد تحدث عنه مرات عديدة في فتوحاته(93).

والموقف هو مكان روحي يفصل بين منزلتين من منازل التصوف، يقف فيه السالك طريق الصوفية ليتعلم علم المنزلة التي يريد الارتقاء إليها، وليتزود بما يلزمه من آداب تلك المنزلة تمهيدا للانتقال إليها والحياة فيها[94].

د- **دوافع كتابته**: ألف الأمير عبد القادر كتابه المواقف في أخريات حياته، فكان حصيلة ثقافته الصوفية وثمرة نشاطه التعليمي بدمشق، وقد كان تدوين المواقف استجابة لطلب جلسائه من علماء دمشق، الذين اعتبروه عالما كبيرا والتفوا حوله منذ الأيام الأولى من حلوله بمدينتهم ليستمعوا إلى علومه ومعارفه، وقد عبر البيطار عن ذلك حينما خاطب الأمير بقوله: "نحن أهل دمشق نعد نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة، وقد زادنا جلت عظمته من فضله أن جعل إقامتك فيها وأفادنا من علومك ومعارفك وما تشغله من وقدات في نور القلوب"[95].

لذلك اجتمع رأي البيطار وغيره من علماء دمشق الذين كانوا لا يتخلفون عن مجالس الأمير ودروسه، أن يدونوا ما يتكلم به في تلك المجالس، فكان ذلك نواة كتاب المواقف[96].

وعلى الرغم من ذلك فإن الأمير لم يؤلف المواقف إلا لفئة معينة من تلاميذه ومريديه، حيث بدأ كتابه بقوله: "هذه نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار من وراء طور العقول

وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب و النظر في كتاب قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها تركوها في زوايا إمكانها (كذا) إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كنزهم" [97].

ونستخلص مما سبق أن الأمير كتب المواقف لإخوانه الصوفية أو الذين لهم استعدادات صوفية، من المؤمنين مثله بمبادئ أهل الباطن من ذوي اللقاءات السبوحية و العلوم الوهبية و الأسرار الغيبية[98]، أما من هم دونهم ممن يسميهم " علماء الرسم القانعين من العلم بالاسم " [99]، الذي ينكرون عليه ذلك ويعتبرونه من الأساطير، فإن الأمير لا يأبه لهم، وإنما ينصحهم أن يتركوا مواقفه في زاوية حتى يبلغوا أشدهم في طريق العلم الصوفي فيعرفوا كيف يستخرجوا كنزهم العظيم منها [100]، وإلى أن يبلغوا ذلك فإن الأمير يبدو مشفقا عليهم، عاذرا لهم، حيث يقول: " ولا نجاد لهم بل نرحمهم ونستغفر لهم، ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم، إذ جئناهم بأمر مخالف لما تلقوه من مشايخهم المتقدمين، وما سمعوه من آبائهم الأولين، فالأمر عظيم والخطب جسيم، والعقل عقال والتقليد وبال، فلا عاصم إلا من رحم ربي" [101].

وكان دافع الأمير لكتابة المواقف إكباره للشيخ محيي الدين ابن عربي، وغرامه بمشربه العرفاني، فقد مثل – في اعتقاده- أعلى مناهل المعرفة الإحسانية في الإسلام، وكرس

جهده في دمشق لنشر معارف شيخه الأكبر، فانكبّ على شرح المفاهيم العرفانية كما وردت في أهم كتب ابن عربي وخصوصا الفتوحات المكية وفصوص الحكم و التجليات [102].

وعبر الأمير في المواقف عن عظيم إجلاله لابن عربي، حيث وصفه بأنه خاتم الورثة المحمديين، وإمام العالمين بالله تعالى ورسله، وإمام المكاشفين من الأولياء وإمام المحققين، وظل على إجلاله حتى وافته منيته، حيث أوصى بأن يدفن بجانب شيخه ابن عربي في الصالحية بدمشق فدفن هناك [103].

هـ- **تصنيف المواقف وعرضها**: يمكن تصنيف مواقف الأمير إلى الأصناف التالية:

1- المواقف التي تشرح آيات قرآنية، وأحيانا سورا كاملة من القرآن، كسورة التكوير (موقف 291)، وسورة الشمس (موقف 86)، وسورة الفاتحة (مواقف 14، 59...) ، والناس (موقف 175).

2- المواقف التي تشرح أحاديث نبوية أو قدسية.

3- المواقف التي تجيب عن أسئلة تتعلق بكتاب " الفتوحات المكية " لمحيي الدين ابن عربي.

4- المواقف التي تشرح بعض الأبواب من كتاب " فصوص الحكم " لابن عربي، كفص لقمان(موقف 294)، وفص إسماعيل (موقف 355)، وفص شعيب (موقف 358)، وفص آدم (موقف 367).

حولية المؤرخ

مجلة دورية محكمة يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين



العدد: 9- 10

السداسي الأول 2010

ISSN 1112-4253

رقم الإيداع: 2003-771

طبع بدار غرناطة للنشر والتوزيع
56، نهج عبد الرحمن ميرة باب الوادي الجزائر
الهاتف: 64 26 96 21 (0) 213+
الفاكس: 51 75 97 21 (0) 213+
email : editionsgharnata@hotmail.fr